إضاءة

إن كان إدوارد سعيد قد كشف نفوذ الاستشراق في المعارف الغربية وفي المتخيّل حول الشرق، فإن تأثيرات الاستشراق، وبعض النظريّات التي لا علاقة لها بالعلم، تمتدّ إلى مجالات أخرى، أبرزها علم الآثار. هنا وقفة عند عدد من أكثر هذه النظريات غرابةً

محمد الأسعد

مع الربع الأخير من القرن العشرين، بدأ الكشف عن تزييف مارسه بعضُ مَن اتّخذوا لأنفسهم تسمية مستشرقين، وتشكّلت منهم، حسب إدوارد سعيد، شبه مؤسّسة تضع قواعد مُلزمة لكلّ مَن يَنهمّ بمقاربة أي موضوع «شرقيّ». الجديد الذي بدأ الكشف عنه لم يعد خاصّاً بهذه القواعد المُلزمة في مقاربة التاريخ ونشوء العقائد والآداب وهويات الأمم فقط، بل امتدّ إلى علم الآثار تحديداً، وأطلق حركةَ تحرير يمكن أن نعتبرها حركة مقاومة أيضاً، نظراً للعقبات التي أقيمت في وجهها، والحروب التي تعرّضت لها، والتي وصلت إلى حدّ اغتيال علماء آثار، منهم بول لاب (اغتيل عام 1970)، والبرت غلوك (اغتيل عام 1992). وكلا العالمين أميركيٌّ كان معنيّاً بالتنقيب في فلسطين، ومقاومة السرديات الصهيونية التي طمست وجود الشعب الفلسطيني في الماضي والحاضر على حدّ سواء، وأبرز ما قام به الثاني منهما كان تأسيس «معهد الآثار الفلسطيني»، الأوّل من نوعه في العالم العربي، في «جامعة بير زيت». هذا الجانب الجديد، أي المقاومة والتحرير بوساطة سرديّة علم آثارٍ متحرّر

عِلم آثار بديل لأساطير المستشرقين

في التحرّر من سرديّات خانقة

موقع الري يعود إلى الحضارتين الأكدية والأشورية في مدينة نينوى العراقية. 1978 (Getty)

من قبضة الخطاب التوراتي الاستشراقي، لم يأخذ نصيبه كاملاً في الثقافة العربية على الصعيد الأكاديمي والشعبي، مع أنه بدأ يحتلّ مكانة متميّزة في أجواء الثقافة الغربية، آخذاً شكل دحض نظريات وسرديات حوّلت الشرق، والعربيّ منه بخاصة، إلى شرق توراتيّ خالص، وغمرتْ عالم الثقافة الغربية، ووجّهت بوصلة غالبية مؤسّساته نحو اتّخاذ مواقف غير عقلانية دعمت وبرّرت استعمار فلسطين، وما تزال تدعمه وتبرّره إلى الآن، حتى بعد أن بدأت أمواجها الصاخبة بالانحسار.

بدأتْ هذا الكشفَ التحريري مجموعةٌ باحثين يعملون معاً في ما تُسمّى الآن مدرسة كوبنهاغن، ومن أعلامها البارزين الأميركي توماس تومسن، صاحب كتاب «التوراة في التاريخ» (1999)، والإسكتلندي كيث وايتلام، صاحب كتاب «اختلاق إسرائيل قديمة» (1996)، والفلسطيني نور مصالحة، صاحب كتاب «فلسطين: تاريخ أربعة آلاف عام» (2018)، وآخرون. وفي اللغة العربية ساهم كمال الصليبي بقسط مهمّ في فضح تزوير عدد من المستشرقين، وعلى رأسهم وليم أولبرايت.

وحديثاً، هناك عدّة كتب للباحث أحمد الدبش من فلسطين، تفضح أضاليل المستشرقين، وخاصّة الذين يتّخذون الخطاب التوراتي سراجاً، ويحاولون. عبثاً. البرهنة على أنّه كتاب تاريخ. وهناك كتابٌ مهمٌّ في الإنكليزية أصدرته نادية أبو الحاج تحت عنوان «وقائع على الأرض» (2001) لدى مطبعة «جامعة شيكاغو»، وقبلها كانت دراسات عالم الآثار الأميركي روبرت غلوك المنشورة في عدد من الدوريات. وهناك باحثون أميركيون وبريطانيون لهم مساهمات جيّدة في هذا الموضوع، ويمكن العثور على دراساتهم وكتبهم بالبحث على شبكة الإنترنت تحت عناوين مثل «نقد الخطاب التوراتي» أو «علم الآثار السوري - الفلسطيني» أو «نهب آثار وادي الرافدين» وغيرها.

وفي معاكسة لهذا السياق، تلفت النظر اتجاهات «عربيّة» تعود بين الفينة والفينة إلى ما أشاعه المستشرقون قبل قرن من زمننا هذا، في تجاهل لكل ما ظهر حتّى من نوادر عربية في هذا المضمار، فتُترجم أو تقبس من مصادر ليست في متناول القارئ العربي، بحُسبان أنّها كشوفٌ جديدة، متجاهلة أنّ هناك «حركة مقاومة وتحرير» قائمة منذ سنوات، نشرت بعض مطبوعاتها بالعربية، ونشرت غالبية كشوفها باللغات الغربية.

من هذه المصادر التي ألقاها حتّى عالم الثقافة الغربية جانباً، مؤلّفاتٌ تتحدث عن الأصول السومرية للحضارة المصرية، والكلام عن قوائم بأسماء ملوك الهند وسومر ومصر. وتصل هذه المصادر إلى درجة إقامة نظرية تقول إنّ فراعنة حكموا الهند، أو سومريّين حكموا مصر، أو تجعل الملوك التوراتيّين هم ذاتهم ملوك سومر وأكد... وما إلى ذلك.

أبرز مصادر هذا التخليط الخيالي كتابُ وقدّم له الباحث خزعل الماجدي بالقول إنّه «كتابٌ مثير»! هذا الكتاب مثيرٌ بالفعل، ولكن ليس بمعنى أنّه كشفٌ علمي أصيل، بل بمعنى أنّه يقوم على تخيّلاتٍ عجيبة لا صلة لها بأيّ علم، اخترعَها هذا الجرّاح البريطاني، وحاول فيها عدّة أمور.

أوّلاً، نسبةً ما سَماها الحضارة السومرية إلى الجنس الآري (!)، باستخدام أساطير الملاحم الهندية والعلاقات التجارية بين وادي الرافدين وساحل الخليج العربي وحضارتي هارابا وموهنجو دارو الهنديّتين، والأختام التي وُجدت هنا وهناك، والخلوص. من كلّ هذا . إلى أنّ السومريين أريون جاؤوا من الهند! وثانياً، نسبة الحضارة المصرية القديمة إلى السومريّين، باعتبار أنهم هم الذين «صنعوها». وثالثاً، نسبة اختراع الأبجدية للآريّين، على اعتبار أنّ السومريين، الذين هم أريون كما يدّعي، هم من اخترعوا الكتابة، وعنهم أخذها المصريّون!

ولدى هذا البريطاني أعاجيبُ أخرى، فهو يجعل البريطانيّين والاسكتلنديين من أصل «فينيقي»! وأفضل وصفٍ لهذا البريطاني هو ما أطلقه عليه كاتب بريطاني آخر، في العام 1925، في تناوله لكتاب لـ «وادل» يزعم فيه أن السومريّين الذين ينسبهم إلى وادي الهندوس هم فينيقيون أيضاً، حيث اعتبره تجسيداً لشخصية إنديانا جونز، التي تخوض مغامرات خيالية، مرّة بحثاً عن عنزة يوسف الملوّنة، ومرّة عن تابوت العهد الأسطوري.. وهكذا.

الخلاصة أنّ كل ماجاء به لورنس وادل كان ينطلق من «مسلّمة» عجيبة، وهي أنّ حضارات وطننا العربي من صُنع غزاة أكثر تقدّماً، شأنها في ذلك شأن أيّ حضارة أخرى . كما يزعم . قديماً وحديثاً؛ ولا بد، بالتالي، من البحث عن الأصل الذي جاءت منه هذه الحضارة. هذا الأصل، بالطبع، هو الجنس الآري المقدّس.

(شاعر وروائي وناقد من فلسطين)

وهن الخطاب التوراتي

الأكثر دلالةً ولفتاً للنظر في الخلطة التي يقدّمها بعض المستشرقين، جعل اقاصيص التوراة شواهد على ما يزعمون أنها «حقائق تاريخية». وكان الخطاب التوراتي يحدّد نفسه، فيستعين على أثبات ما كان قد اختلقه من «تاريخ» للبشرية ـ ظهر تهافُتُه ـ بأساطير الشعوب القديمة، وبحكايا عن الهابطين من السماء. لكنّ علم الآثار وتاريخ الشرق العربي كشفا عن وهن منسوجات هذا الخطاب، وأصبحا على أبواب التحرّر من سرديّاته الخانقة.

ذهب بعض الغربيّين إلى حدّ نسب حضارات شرقية إلى أصل آريّ

لم يأخذ التيار العلمي الذي يقاوم هذه السرديات حقه عربياً

إطلالة

ضوءٌ يقاوم الانطفاء وسط الخراب

سؤال الشعر والتاريخ

يكادُ لا يمرّ عصرٌ إلّا وله شاعرُه. لكنّ الأسئلة حول الشعر لا تتوقّف، رغم ذلك. هل نستطيع تخيّل العالم من دون قصائد؟ هل يموت الشعر؟

عاطف الشاعر

هل من سببٍ مقنع لكتابة الشعر في أوقاتنا هذه؟ درجت العادة أنّ المُقنِع هو ما له صدىً مادّيّ ملموس، وروابط مفهومة على أرض الواقع. أمّا الشعر، رفيق الهواء، ذاك الذي لا يحطّ على أرضٍ صلبة، فما الغرض منه؟ هذان السؤالان يشكّلان الجوهر الذي يمثل كينونة الإنسان حين يفكّر في الشعر، وهما سؤالا العقل والقلب في الأساس. العقل في حال وصل إلى أنّه عقل، أي منبع فكر علمي منطقيّ بالدرجة الأولى، لا يرى في الشعر سوى وهمٍ يتسرّبُ من مكان آخر. أمّا القلب، وهو ساحة الروح، ففضاءُ شعورٍ ومدّ وجزر، معنوي ومادي. أمّا اللغة، وهي الوسيط بين هذين المنبعين، فمحراثٌ في يد حارث، أي فلكةٌ توجّهها يد الفاعل تجاه ما تريد من غثٍّ أو سمين.

السؤال هنا: هل ثمّة حياةٌ من دون عقل أو قلب؟ كلاهما رافدٌ أساسي في البناء الإنساني، ولن نخطئ لو قلنا «الحيواني» أيضاً. لكنّ هبة اللغة، بتعقيداتها ومنتوجها اللامتناهي، هي للإنسان دون غيره.

ولربّما نسأل أكثر: هل نستطيع تخيّل العالم من دون الشعر، سفير القلب الأمثل على مدى كل العصور؟ وهل نستطيع رؤية العالم من دون العقل، منبع الفكر والعلم واللغة، أيضاً على مدى العصور؟ الجواب قطعاً: لا. الشعرُ هو ما يُلازم القلب شغفاً، كما اللغة تُلازم العقل عادةً وفكراً. وإن كان الشعرُ لغةً، وهو كذلك، فإنّ منبعه غير العقل بالمعنى الآنيّ للكلمة؛ منبعه القلب. وليست هذه نظرة رومانسية للشعر بقدر ما هي خواطر عن روافد اللغة في جسد الإنسان.

هل يتوقّف الشعر على وصفه تعبيراً عن كينونة الإنسان؟ في العالم الذي نعيش فيه اندثرت أشياءُ كثيرة. تغيّرت الآلاتُ ومعتقدات كان يؤمنُ بها أهلها إيماناً راسخاً، واندثرت أيضاً لغاتٌ كانت يوماً نابضة ورمزَ قوّة وهيبة، كاللاتينية التي كتب بها فيرجيل قصائده، والآرامية التي تحدّث بها المسيح. كلّها اندثرت، إلّا في جيوب صغيرة. إذن، ذهبت أشياءُ كثيرة، وحلّت محلّها أشياء أخرى. الرواية، مثلاً، أصبحت الوسيلة التعبيرية الأكثر انتشاراً في الأدب الحديث، خصوصاً مع التعقيدات المجتمعية التي رافقت الثورة الصناعية وصعود البرجوازية وظهور الطبقة الوسطى. تبدو الرواية أكثر انتشاراً من الشعر في الثقافات الأوروبية، لكنّ شمعة الشعر لم تنطفئ، والقرون الثلاثة الماضية في أوروبا غنيّة بتجارب شعرية عالمية ونادرة الصيت.

يكادُ لا يمرّ عصرٌ إلّا وله شاعرُه. والشعر العربي مثالٌ جيد على ذلك. منذ القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا والتراث الشعري العربي يتدفّق، مستعيداً أصواتاً من عصور أخرى، وصانعاً أشكالاً ومحتويات جديدة تخضّ السياق الحديث للعالم العربي. ترنّحت أشياء كثيرة، منها فكر العروبة والقوميّة لأمّة تشترك بلغة وجغرافيا وتراث واحد. لكن بقي شعرُها. نستطيع القول إن السياسة فرّقت الأمة العربية، ولكنّ الشعر (واللغة بالمفهوم الأوسع) لا يزال يجمعها.

يعد كل هذا: هل يموت الشعر؟

في نهاية الحرب الباردة، أتى مُنظّرٌ سياسي أميركي اسمه فرانسيس فوكو ياما وأدّعى نهاية التاريخ، وسمّى كتابه بهذا الاسم (نهاية التاريخ). قصدَ من ذلك أنّ اقتصاد السوق القائم على الرأسمالية، والتنافس شبه المنظّم، والديمقراطية، والمؤسّسات الغربيّة الليبرالية، التي تنظّم الحُكم وتفصل بين السلطات، قد حلّتْ جميعُها محلّ النظم القديمة، وهي النموذج الأنبل لقيادة حياة البشر نحو نظام سياسي مزدهر. يعني هذا أنّ هزيمة شيوعية الاتحاد السوفييتي ليست هزيمة نظام سياسي فحسب، ولكن أيضاً هزيمة فكرة بالأساس، مرّة وإلى الأبد.

طبعاً، أخطأ فوكو ياما لأنّه اعتبر أنّ النظام هو الذي يصنع البشر، في حين أنّ البشر هم الذين يصنعون النظام والتاريخ. يعني هذا أنّ الغرب، خصوصاً ذلك الذي تجسّده أميركا، قد يتخلخل وقد ينهار، كما كلّ الأنظمة البشريّة على

فرّقت السياسةُ الأمة العربية، لكنّ الشعر ما زال يجمعها

من ذلك أنّ الشعر، إنْ لم يُحرس النظام وتُدر القوّة بمنطق واتّزان وسياسة حكيمة. وقد رأينا ذلك ونراه في صعود اليمين المتطرّف في الغرب، وحركات غوغائية، وعنصريّة، منكفئة على ذاتها، تدبرها غرائزُ حيوانيّة مقيتة. إذن، التاريخ ليس مؤسّسات فقط، على أهميّة المؤسسات والنظم. التاريخ بشرٌ: هُم مَن يصنعون وهم من يهدمون.

ونعودُ إلى الشعر للقول: إنّه لا نهاية للشعر، كما لا نهاية للعقل، كما لا نهاية للتاريخ. قد تتجمّد كلّ هذه الأشياء وتبدو متخشّبة في لحظات تسودُ فيها قتامة الحياة البشرية، خصوصاً في سياق جائحات أوبئة فتّاكة، وحروب طاحنة، وصراعات وأيديولوجيات مريرة. لكنّ، ثمّة دائماً ضوءٌ ما يقاوم الانطفاء وسط الخراب، وهذا الضوء هو الإنسان الأصل وحاسّة البقاء، وربّما السمغ فيه.

ضوءُ العقل والقلب، بمنطقه وشعره، هو الأمل الذي يجبُ أن يُعوّل عليه في مسيرة هذه الإنسانية، المتأرجحة أبداً بين الظلام والنور.

(ناقد وأكاديمي مقيم في لندن)

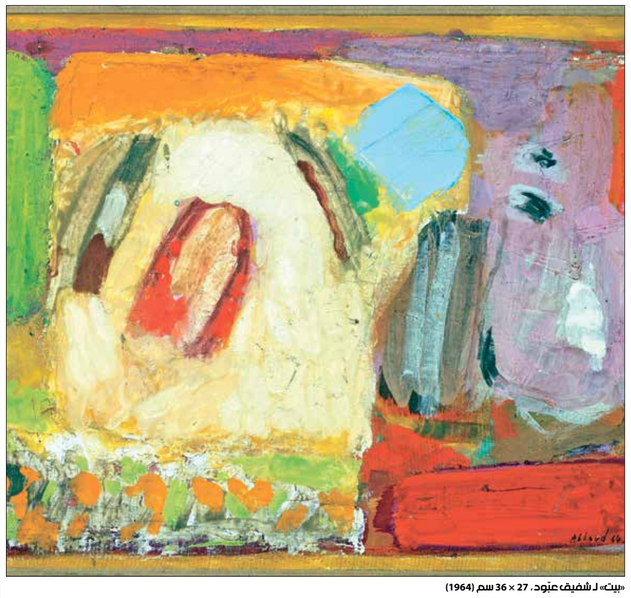
«بيت» لـ شفيق عبّود. 27 × 36 سم (1964)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

متابعة

المسرح الجزائري إصلاح ما لا يمكن إصلاحه؟

تسميات جديدة لاختلالات قديمة

الجزائر ـ **مليكة ياسين**

في تمّوز/ يوليو من العام الماضي، أطلقت وزارة الثقافة الجزائرية ما سمّته «ورشةَ لإصلاح المسرح»، ضمّت قرابة خمسين مسرحيّاً؛ مثل زياني شريف عياد، وعبد القادر جريو، ومحمد بحياوي، ومحمد بوكرّاس، وأسندت مهمّة الإشراف عليها إلى الكاتب والمسرحي أحميدة عياشي. وكان هدف الورشة، وهي واحدةٌ من ورشات عدّة أطلقت في مجالاتٍ ثقافية أخرى، تقييمَ وضع المشهد المسرحيّ في الجزائر واقتراح حلولٍ لاختلالاته، قبل أيّام، أعلن، في ختام ملتقًى نُظّم في الجزائر العاصمة بعنوان «الاستراتيجيات الوطنية والدولية في تسيير المسارح»، عن مخرجات الورشة، والتي تضمّنت، بحسب عيّاشي، «مقترحات لتنظيم القطاع والخروج به من حالة الركود والانسداد البيروقراطي التي يعيشُها». من بين تلك المقترحات «إصلاحُ مسرح الدولة»، من خلال الانتقال من «المسرح الجهوي» (التسمية التي تحملها المسارح الموجودة في بعض المدن الجزائرية) إلى «مسرح المدينة»، وتعيينُ مدراء لهذه المسارح بناءً على ما يحملونه من مشاريع، وإلزامهم بأنْ توفّر المؤسّسات التي يُسيّرونها هامشاً ربحياً يُضاف إلى ما تُقدّمه لها الدولة من تمويل.

إلى جانب ذلك، اقترحت الورشة الاهتمام بما سمّته «مسرح المبادرة» الذي قالت إنّه يشمل المسارح الخاصّة والقاعات المسرحية الصغيرة والتعاونيات الفنّية ومسرح الشارع، وأيضاً «مسرح الغد» الذي قالت إنه يشمل مسرح الطفل، ومسرح الناشئة، والمسرح المدرسي، والمسرح الجامعي، إضافةً إلى إصلاح «مسرح الهواة». وتضمّنت المقترحات، أيضاً، تطوير التدريب المسرحي، والاهتمام أكثر بالتوثيق والرقمنة، والإفادة أكثر من فنون العرض الأخرى؛ كالكوريغرافيا، والبالي، والأوركسترا.

وشهد الملتقى، الذي نظّمته وزارة الثقافة في «المسرح الوطني محيي الدين باشطارزي» إقامة عدّة ندواتٍ؛ من بينها ندوة حول «مشاكل تسويق الإبداعات المسرحية»، كان من بين المشاركين فيها المخرج المسرحي شوقي بوزيد، الذي دعا في مداخلته إلى إعادة النظر في أساليب توظيف عمّال المسارح، واعتماد سياسة لتحويل الأخيرة إلى مؤسّسات اقتصادية ربحية، مُعتبراً في هذا السياق أنّ «الإعانات التي تمنحها الدولة للمسرح الوطني والمسارح الجهوية تذهبُ جميعُها لتغطية أجور الموظّفين،

في انتظار وزير ثقافة جديد ليبدأ مجدداً من نقطة الصفر

وليس لدعم الإبداع»، مُضيفاً أنّ المشاركة في «المهرجان الوطني للمسرح المحترف» والفوز بإحدى جوائزه أصبح الهدف الوحيد خلال العام لمسيّري هذه المسارح. أمّا الباحث المسرحي، محمّد بوكرّاس، فدعا إلى اعتماد إستراتيجية تسويق ذكية للإنتاج المسرحي، تُراعي طبيعة الجمهور واحتياجاته وأوقات فراغه.

تبدو المقترحاتُ المقدّمة إلى وزارة الثقافة، من خلال «ورشة إصلاح المسرح» أو ندوات الملتقى، وجيهةً لجهة دعوتها إلى الإهتمام بالمجال المسرحي وتطويره. لكنّها، من جهة ثانية، لا تعدو أن تكون مجرّد إعادة تذكير باختلالاتٍ معروفةٍ أصلاً ولم ينفكّ المسرحيون، كما يفعل المشتغلون في مجالاتٍ ثقافية أخرى، يطرحونها. لعلّ الجديد هذه المرّة هو فقط هذه النزعة إلى اختلاق تسمياتٍ جديدة: «مسرح المدينة»، «مسرح المبادرة»، «مسرح الغد».

المؤكّد أنّ الخروج من هذه الدائرة المغلقة يتطلّب إرادة سياسية أوّلاً. هل تتوفّر هذه الإرادة لدى وزيرة الثقافة الحالية؟ ليست الإجابة عن هذا السؤال ذات أهمية كبيرة، بما أنّ الوزيرة - كما الحكومة الحالية - لن تستمرّ بعد الثاني عشر من حزيران/ يونيو المقبل؛ تاريخ إجراء انتخاباتٍ تشريعية مبكرة يُنتظر أن تأتي بحكومةٍ جديدة ووزير ثقافةٍ جديد سيُعيد حتماً ما بدأ (إن بدأ شيء فعلاً) إلى نقطة الصفر.

مبنى «المسرح الوطني الجزائري»

فعاليات

تُقام حالياً في «قصر المانسترلي» بالقاهرة الدورة الثالثة من **معرض نون** الذي يجمع قرابة مئة عملٍ فنّي بين التصوير والرسم والحرف اليدوية. تحمل الدورة الجديدة شعار «النساء في زمن الجائحة»، وتهدف، بحسب المنظّمين، إلى التعريف بقضايا النساء وعرض وجهات نظر متنوّعة حولها من خلال الفن.

تتواصل حتى يوم غد، في «مدينة الثقافة» بالقرب من تونس العاصمة، فعاليات الدورة العشرين من **مهرجان الاغنية التونسية** التي تعود بعد انقطاع استمرّ ثلاثة عشر عاماً. تُشارك في المسابقة الرسمية قرابة ستّين عملاً، وتُقام، على هامش التظاهرة، ثلاث ندواتٍ تتناول «واقع وآفاق الاغنية التونسية»، و«فن الاتصال»، و«إشكاليات الانتاج وسبل دعم الاغنية التونسية».

تحت شعار «الفيلم الوثائقي ذاكرة الشعوب»، تنطلق مساء الخميس المقبل، في «متحف السودان القومي» بالخرطوم، فعاليات الدورة الاولى من **مهرجان الفيلم الوثائقي**. الى جانب العروض التي تتنافس على جوائزه الثلاث، يتضمّن المهرجان عدداً من المعارض الفوتوغرافية والتشكيلية والندوات وورش العمل.

تُختتم غداً في «مسرح الهواء الطلق» بمدينة تيميمون، جنوب الجزائر، فعاليات الدورة الثالثة عشرة من **المهرجان الوطني لتراث اهلّيل**، بمشاركة عددٍ من الفرق المحلية التي تُقدّم هذا النوع الشعري الغنائي. تُقام خلال المهرجان ندوة فكرية حول اهلّيل يشارك فيها اكاديميون وباحثون من الجزائر.